

الإلياذة الإسلامية

لأحمد محرم

١

كلنا نعرف أن الشعر العربي شعر غنائى ، فهو قصائد قصيرة مهما طالت لا تتجاوز مائة بيت ، وإن طالت فلا تطول إلى أكثر من مائتين أو ثلاث ، كما هو الشأن عند ابن الرومى . وهو يُعَدُّ شذوذاً على ذوق العرب ، لأنهم لا يعرفون كل هذا الطول لقصيدتهم ، بل إن القصيدة قد تقصر عندهم حتى تصل إلى سبعة أبيات ، وقد تقصر أكثر من ذلك ، فتصبح مقطوعة ، وما أكثر مقطوعاتهم ومنظوماتهم القصيرة .

وهذا القِصْرُ فى القصيدة العربية ليس خاصاً بها دون قصائد الأمم الأخرى ، بل هو سمة عامة ، ولكن فى أى شعر ؟ فى هذا الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر عن عواطفه وإحساساته ومشاعره ، والأمم الغربية كلها تعرف هذا اللون من الشعر الذى يتغنى فيه الشاعر خواطره الذاتية من حب وغير حب .

وتعرف هذه الأمم بجانب ذلك لونهاً من الشعر التعليمى ، ونجد له أمثلة كثيرة فى لغتنا ، كما تعرف لوزين آخريين هما الشعر القصصى والشعر التمثيلى ، ولم يعرف العرب اللون أو النوع الأخير لسبب بسيط ، وهو أنه لم يكن عندهم مسرح ، ولا عرفوا التمثيل ولا الحوار الطويل الذى يسوقه أشخاص مختلفون فى عمل أدبى واحد .

والعرب كذلك لم يعرفوا الشعر القصصى الذى عرفه الغربيون ، لأنهم ذاتيون فى شعرهم ، لا ينفكون عن بواطنهم ودخائلهم ، ولا يتصلون بمحيط غير محيط

أنفسهم . أما ذلك المحيط الواسع للظروف والأحداث من حياة أمتهم وما التحمت فيه من حروب ، وما اضطرب في هذه الحروب من عواطف وأفكار ، وما تحدثت به معاصروها من سير بطولة وأبطال ، فإن ذلك كله لا يعنى شاعرها ولا يهيمه ، إنما يهيمه أن يصف ما يحسه ، وأن يتغنى بمشاعره في سرعة وعجلة ، وبلون ريت ولا أناة .

فالشاعر العربي لا يعرف النظرة الشاملة للحقائق مجتمعه ونفوس الناس من حوله ، ولا لحقائق التاريخ وما يصوره من هذه الدائرة الواسعة من حياة أمته . ومن هنا لم يفكر لا في شعر تمثيلي ، ولا في شعر قصصي ، لأن ذلك يؤدي به إلى عرض الحقائق الكلية ، وهو إنما يُعنى بالحقائق الجزئية ولا يكاد يُلم بحقيقة كلية حتى يحولها إلى حقيقة تجريدية في مثل أو حكمة . فلم يتعدّ دائرته الشخصية المقفلة ، ولا دفعته أمواج خارجية بعيداً عنها .

وهذا من شأنه أن يعزله إلى نفسه ، ويفصله عن كل ما يجرى حوله من تاريخ وغير تاريخ ، وهو إن اتصل به لم ينفذ فيه نفوذاً عميقاً ، بحيث يصل إلى أغواره ، أو بحيث يقصر نفسه عليه ، وينفخ في بوقه إلى نهايته . إنه لا يعرف إلا نفسه وذاته وحقيقته ، وهو ينفخ بكل جهده في هذا البوق الكبير ، غير مهتم بشيء سوى شخصه وأحاسيسه .

وكان من مظاهر ذلك عند شاعرنا أن نفّسه في شعره لا يطول ، بينما الشاعر القصصي عند الأمم الأخرى يطول نفّسه طويلاً معرفياً ، حتى تتجاوز قصيدته مئات الأبيات ، بل حتى تتجاوز الألف والألفين والثلاثة ، بل حتى تصبح آلافاً عشرة أو أكثر . وكان الشاعر العربي لم يكن يعجبه أن يكتب هذا العدد الضخم من الأبيات ، أو قل إنه كان يعيش في إطار نفسه الداخلي ، الذي لا ينفخه إلا بالأبيات القليلة والقصيدة القصيرة .

وليس بصحيح أن العرب لم ينظموا شعراً قصصياً لأنه لم تكن عندهم حرب كحرب طروادة تلك الحرب التي ألهمت هوميروس قصيدته الطويلتين : الأوديسة والإلياذة ، وقد بلغت الأخيرة نحو ستة عشر ألفاً من أبيات

الشعر القصصى صورَ فيها ما كان من أحداث في السنة الأخيرة من تلك الحرب . ليس بصحيح أن العرب يفقدون في تاريخهم حرباً هائلة كهذه الحرب ، فقد كانت لهم قديماً حروبهم وبين الفرس كما في موقعة ذي قار ، وكانت لهم حروبهم الداخلية الرهيبة كما في حرب البسوس ، ثم كانت لهم حروبهم الإسلامية في الشرق والغرب ، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون عن « أخيل وهكتور » بطلي إلياذة هوميروس فتكا وشجاعة .

إنما هو الشاعر العربي الذي لم يتعدَّ غالباً حدود نفسه ، ولم يشأ أن ينظم سوى أغنياته التي يعبر فيها عن لحظة له هنيئة وأخرى حزينة . وقد تعرَّض بعض الشعراء لكتابة التاريخ أو فصل منه بالشعر ، على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه في نظمه لحروب عبد الرحمن الناصر ، ولسان الدين بن الخطيب في نظمه للتاريخ حتى عصره شعرا ، وكثيراً ما نظمت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وقصصاً لإسراته ومعراجه .

ولكن أكثر هذا كله ليس من الشعر القصصى في شيء ، وإنما هو أشبه ما يكون بنظم المتون ، إذ تحصى المعلومات التاريخية لإحصاء ، على نحو ما يحصون في متون الشعر التعليمي قواعد العلوم ، فهم ينظمون الحوادث في أسلاك من الشعر ، وقلما يضيفون روعة من خيال ولا تمثلاً صحيحاً لحقائق التاريخ وما اندمجت فيه من مناقضات ، أو لمع على جبينها من بطولة وأبطال .

ومثل هذا النظم إنما يدخل في الشعر التعليمي ، ذلك الشعر الذي يسوق المعارف ويحشدها في غير قصد إلى إثارة للخيال أو إثارة للمشاعر ، فهو شعر يخاطب العقل وركن المعرفة الهادئة فيه ؛ ويستمد من الذاكرة لا أحلاماً ، وإنما حقائق عارية لا تلبث أن تتحول أمام من يعرفها إلى ما يشبه الثروة المملة ، إذ لا تزيد على أنها سردٌ لوقائع معينة .

لم تعرف العربية إذن الشعر القصصى بمعناه الغربي ، وإنما عرفت ضرباً من نظم التاريخ تشبه أن تكون متوناً للحفظ والتسميع . وما زال هذا شأننا حتى اتصلنا بأوروبا وآدابها في القرن الماضي ، واطلع شعراؤنا على الملاحم الكبيرة عند القوم ، فتمنوا لو حاكوها أو لو نقلوها إلى لغتهم .

ولم يلبث سليمان البستاني أن نقل إلياذة هوميروس إلى لغتنا شعراً ، وبذلك رأى شعراؤنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى ، ورأوا ما يجرى فيه من حروب وحوادث مثيرة تدور حول أبطال اليونان وطروادة . ومعروف أن الإلياذة نُظمت من وزن واحد لم تخرج عنه ، وأن الأسطورة تجرى في ثناياها ، وأن الآلهة كانت تتدخل في الحرب ، فتارة تنصر اليونان وتارة تنصر طروادة .

ففيها خيال واسع وفيها حلم مثير ، وفيها حوادث خارقة ، وكل هذا يعرض في لغة فخمة . وقد حاول سليمان البستاني أن ينقل كل ذلك إلى العربية وأدى فيه جهداً مشكوراً ، وإن لم يلتزم في عمله وزناً بعينه .

وما زال شعراؤنا يتطلعون إلى مجارة هذا العمل ومحاكاته ، حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود ، فاختار حروب الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعاً لإلياذته أو ملجمته الإسلامية . وتحفظ دار الكتب المصرية بنسخة مصورة منها ، ونراه يقسمها فصولاً ، وكثيراً ما يقدم للفصل بقطعة نثرية يوضح فيها موضوع القصيدة التالية ، سواء اتصلت بغزوة أو بحادثة من حوادث السيرة الزكية وهو يفتتحها بقوله :

املاً الأرضَ يا محمدُ نورا واغمر الناسَ حكمةً والدهورا
حجبتك الغيوبُ سرّاً تجلّي يكشف الحجبَ كلها والستورا

صبَّ سبيلُ الفسادِ في كلِّ وادٍ فتدفَّقَ عليه حتى يغورا
 جثتَ ترمى عبابه بعبابٍ راح يطوى سيوله والبحورا
 يُتخذ العالم الغريقَ ويحمي أمَّ الأرض أن تنوق الثُّبورا
 زاخرٌ يشمل البسيطة مدًّا ويعمُّ السبع الطباقَ هديرا
 أنت معنى الوجود بل أنت سرُّ جهل الناس قبله الإكسيرا
 أنت أنشأت للنفس حياةً غيرتَ كلَّ كائنٍ تغييرا
 أنجب الدهرُ في ظلالك عصرا نابه الذكر في العصور شهيرا
 كيف تجزى جميل صنعك دنيا كنتَ بعثًا لها وكنت نشورا
 ولدتك الكواكبُ الزهرُ فجرا هاشمى السنن وصبحًا منيرا
 يصدع الغيب المجلل بالوحد ي الملقى ويكشف الليجورا
 منطق القدرة التي ترهق القا در عجزاً والعبقرى قصورا
 خرت العربُ من مشارفها العا يا توألى هويها والحلورا
 أنكر الناسُ ريتهم وتولوا يحسبون الحياة إفكا وزورا
 تلك أربابهم أتلك أن تن فمع مثقال ذرة أو تضيرا
 مالدى «اللات» أو «مناة» أو «العُد زى» غنائه لمن يقيس الأمورا
 جاء دينُ الهدى وهبَّ رسولُ الآ ه يحيى لواءه المنشورا

واستمر يتحدث في هذا الفصل عن جهاد الرسول وبلائه ، وكيف ضرب
 الكفر في نحره ضربة لم يقم بعدها أبداً ، يشد من أزره أصحابه وأنصاره .
 وتحدث عن قريش وأعداء الله ورسوله ، وكيف صلوا عن سيوله ، وما كان
 من لإرسالهم عمه أبا طالب إليه ، وعرضه الملك والمال عليه ، فقال قوله المشهورة :
 « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر
 أو أموت دونه ما تركته » . فهو صاحب رسالة كلفه إياها ربه ذو الجلال ،
 وأمره أن يبلغها الناس ، وهو صاعد بأمره ، حتى ينحر الوثنية في بلاده ، بل في

العالم من حوله ، ويحطم أصنامها تحطيماً .

ويعود المسلم بذاكِرتِه لِشاهد صور الجهاد ، بل قل الكفاح بين الرسول وعشيرته . وتتبعه صفوة منها، ولكن تبقى الكثرة وتستخدم ، وخاصة طغاتها ، كل أسلحتها ضده ، وتبلغ تباشير هذا النور المحمدي المدينة ، فيطلبه نفر منها ويعاهدونه أن يجاهدوا معه في سبيل دعوته وأن يموتوا من دونه ، فيهاجر إليهم . ويقص علينا «محرم» في فصل ثان هذه الهجرة، وكيف استخفى الرسول بغار مع صاحبه أبي بكر ، وكيف عميت عنه عيون المشركين ، حتى إذا أمنهم تابع هجرته إلى أن نزل في ضاحية المدينة المسماة «قباء» فرفع بها المسجد المبارك ، وصلى فيه الصلاة التي شرعها ربه ، والتي تشفى نفوس المسلمين وتغسل عنهم أوضار الحياة وشرورها كلما ألم بهم أذى أو مسّهم ضر ، فهي بلسم جراحهم ، وهي ينبوع الدائم لسعادتهم . وينهض الرسول عليه السلام من قباء إلى المدينة، فينشد «محرم»:

أقبلُ فتلك ديارُ يثربَ تُقبلُ	يكفيك من أشواقها ما تحملُ
القوم مذ فارقت مكة أعينُ	تأبى الكرى وجوانحُ تتلمللُ
يتطلعون إلى الفجاج وقولهم	أفا يطالعا النبي المرسلُ
أقبلتَ في بيض الثياب مباركا	يُزجي البشائر وجهك المتهللُ
خف الرجال إليك يهتف جمعهم	وقلوبهم فرحا أخفُ وأعجلُ
انظر بني النجار حولك عكفا	يردون نورك حين فاض المنهلُ
لم يتزلوك على الخثولة وحدها	كلُ المواطن النبوة منزلُ
نزلوا على الإسلام عنك إنه	نسبُ يعم المسلمين ويشملُ
ما للديار تهزها نشواتها	أهى الأناشيد الحسان ترتلُ
رقت نضارتها وطاب أريجها	وترددت أنفاسها تتسلسلُ
فكانما في كل مغنى روضةُ	وكأنما في كل دار بلبلُ
هن العذارى المؤمنات أقمنه	عيداً تحييهِ الملائكُ من علُ
في موكبِ الله أشرق نوره	فيه وقام جلاله يتمثلُ

جمع النبيين الكرامَ فأخذُ بيد الإمام وعائذُ يتوسل
يمشى به الروحُ الأمينُ مسلماً وجبينه بغم النبي مقبل

وانطلق «محرم» في هذا الفصل يتحدث عن استقبال أهل المدينة للرسول، وكيف كان يود كل منهم صادقاً أن يحط رحاله عنده، فيض هذا النور إلى بيته وصدرة، وكيف تلتطف الرسول، فألقى حبل ناقته على غاربها، وترك لها أن تختار هي سُناخها، حتى لا يألم أحد من مسلمي المدينة، فيظن أن النبي يؤثر عليه أخأله، وما كان يعرف الإيثار بين أنصاره وأصحابه. وما زالت الناقة تسير، ويسير الركب من خلفها، ودفوف النساء تضرب، وهن يغنين هذه الأغنية المشهورة: (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع). وتوقفت الناقة وتوقف الركب، أو قل: توقف الموكب السعيد بفتاء بيت أبي أيوب الأنصاري، وسقط البدر في حجّره: فيا للبشرى وبالسعادة العظيمة وهنياً له ولأهل بيته.

ويفيض «محرم» في ضيافة الأنصار للمهاجرين وما بذلوه لهم، فقد شاطروهم بيوتهم وأموالهم، وأنزلوهم من نفوسهم منازل كريمة. وباركت يد الرسول هذه الأخوة الصادقة، وثقت عراً تلك الحبة الصافية في الله ودينه:

هي الأواصرُ أدناها الدمُ الجارى
الأسرةُ اجتمعت في الدار واحدةً
مضى بها من رسول الله خيرُ أبٍ
تأكد العهد مما ضم ألفتهم
كل له من سِرة المسلمين أخ
يطوف منه بحقٌ ليس يمنعه
يجود بالدم والآجالُ ذاهلةٌ
هم الجماعة إلا أنهم برزوا
فلا محالة من حُبٍ وإيثار
حُيِّيت من أسرة بوركت من دار
يدعو البنين فلبّوا غير أغمار
واستحصدا الحبلُ من شدِّ وإمّار
يحمى الذمار ويرعى حرمة الجار
وليس يعطيه إن أعطى بمقدار
ويبذل المال في يسرٍ وإعسار
في صورة الفرد فانظرُ قدرةَ الباري

صاح النبي بهم: كونوا سواسيةً
 يا عصبه الله من صحب وأنصار
 هذا هو الدين لا ما هاج من فتن
 بين القبائل دين الجهل والعار

ويعرض « محرم » للجاهلية ومآثمها ومظالمها، وأن الرسول جاء يدعو بالحق ودين الهدى . ثم يعقد فصلاً يسلك فيه المناقنين مع اليهود ، ويذكر كيف أن الأخيرين نقضوا ما بينهم وبين الرسول من عهد ، ويوسع الطرفين جميعاً قدحاً وثلباً لما نعموا من الله ورسوله .

ونحن لا نريد أن نسارع إلى الحكم على الإلياذة الإسلامية بهذه الأشعار التي قدمناها ، لأنها قد تعد تمهيداً لموضوعها الأساسي ، وهو وصف الكفاح الذي عاناه الرسول وأصحابه وأنصاره في حرب المشركين ومن كفروا بأنعم الله فشهروا رماحهم وسلوا سيوفهم في وجهه ووجه رسوله .

ولم يقص « محرم » كل وقائع الرسول وغزواته ، فقد اختار أهمها من مثل غزوة بدر الكبرى وغزوة أحد وبنى النضير ودومة الجندل وبنى قريظة والخندق ، تلك الغزوات التي يلمع وميضها في جبهة الإسلام ، ويتألق لأواؤها في قلوب المسلمين . ويكفي أن نعرض من الإلياذة غزوة بدر الكبرى أم تلك الغزوات جميعاً ، ليتضح لنا صوت « محرم » في شعره القصصي على أضواء أتم وأكمل ، وهو يستهلها على هذا النمط :

ما للنفوس إلى العمّاية تجنحُ	أتظن أن السيف عنها يصفحُ
داويت بالحسنى فليجّ فسادها	ولديك إن شئت الدواء الأصلح
الإذنُ جاء فقل لقومك أقبلوا	بالبيض تبرق والصوافن تضبّحُ
أفيطمغ الكفار أن لا يؤخذوا	بل غرهم حلمٌ يُمد ويفسح
أمنوا نكالك فاستبد طغاتهم	أفكنت إذ تُزجى الزواجر تمزح
ظمئت سيوفك يا محمد فاسقها	من خير ماتسقى السيوف وتنضح
اليوم توردها الدماء فترتوى	وتردها نشوى المتون فتفرح

المشركون عَمُوا وَأَنْتَ مُوَكَّلٌ
 خذهم بِيَأْسِكَ لَا تَرَكَ أَجْمَعَهُمْ
 بِالشِّرْكِ يُمْنِحَى وَالْعِمَايَةَ تَمْسَحُ
 فَلَأَنْتَ إِنْ وَزَنُوا الْكُتَابَ أَرْحَحُ
 يَهْدِي النَّفُوسَ إِلَى الَّتِي هِيَ أَوْضَحُ
 ضَلُّوا السَّبِيلَ وَفِي يَمِينِكَ سَاطِعٌ

ثم يتحدث عن أبي سفيان بن حرب وكيف أن قومه بعثوه في تجارة إلى الشام ، فلما اقترب من المدينة خرج الرسول في طلبه ، وعلم أبو سفيان ، فأنبأ قومه أن ينفروا لإتقاده وإتقاده تجارته أو قافلته ، فكانت هذه الموقعة التي سألت فيها دماء المشركين من قريش أعداء الله أنهاراً . يقول (محرم) :

ذهب ابنُ حَرْبٍ في تجارة قومه
 تَسْرٌ مَضَى مُتَصَبِّدًا وَوَرَاءَهُ
 لَسَوْفَ يَعْلَمُ مِنْ يَفُوزِ وَيَرْبِخُ
 يَوْمٌ تُصَادُ بِهِ النَّسُورُ وَتُدْبِحُ
 بَيْنَا يَجِيدُ عَنِ السَّهَامِ أَصَابَهُ
 بَعَثَ ابْنُ عَمْرٍو: مَا لَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ
 إِنْ مَا لَكُمْ أَمْسَى يَلْمُ وَيَكْسَحُ
 مِنْ دُونَ بِيضِكُمْ يُرَاقُ وَيَسْفَحُ
 وَجِبَالُ مَكَّةَ شُهَدَاءُ وَالْأَبْطَحُ
 لُجْمٌ تَرْدٌ وَلَا مَقَاوِدَ تَكْبِجُ
 عَبَثُ اللَّوَاتِي فِي الْهُوَادِجِ تَنْبِجُ
 لِأَضَلِّ مَنْ يَهْجُو الْمُسْلِمِينَ وَإِنْسَاءُ
 ضَرَبُوا الطُّلُيَّ فَالْتَادِيَاتِ النَّوْحُ
 جَفَلَتْ نَفُوسُ الْقَوْمِ حَتَّى مَالَهَا
 نَفَرُوا يَرِيدُونَ الْقِتَالَ وَغَرَّهُمْ
 غَنَّتْ بِهِجُو الْمُسْلِمِينَ وَإِنْسَاءُ
 الضَّارِبَاتِ عَلَى الدَّفُوفِ فَإِنْ هُمُ

وهو يشير بالضاربات اللواتي في الهوادج إلى فرقة النسوة العازقات اللائي كن يصحن جيش قريش ، بصحن في الرجال ويحمنهنهم ويعنهنهم على القتال . وطن أذان تذكرها كتب الأدب والتاريخ .

ويتقدم « محرم » فيصف حشد الرسول لجيشه وما أعده لوثني مكة من سيوف الله المسلولة ، مثل مصعب بن عمير صاحب اللواء ، وسعد بن أبي وقاص ، والمقداد ، وعلى بن أبي طالب ، ويصور احتدام الموقعة واشتداد

أوارها ، وكيف كان قلب الرسول معلقاً بأصحابه وأنصاره ، وهم من حوله ،
وعلى رأسهم أبو بكر صفيه وخليله ، يذودون عن عريشه وكرسيه :

جدّ البلاء وهبَّ إعصار الرّدَى يرى بأبطال الوغى ويطوّحُ
نظر النبي فضجّ يدعو ربه لا هُمّ نصركَ إنا لك نكدح
تلك العصاة ما لدينك غيرها إن شدَّ عادٍ أو أغار مجلّح
لا هُمّ إن تهلك فما لك عابدٌ يغدو على الغبراء أو يتروّح

و«محرم» يشير بذلك إلى ما يروى عن الرسول ، من أنه كان يدعو ربه
في هذه المعركة قائلاً في بعض دعائه : اللهم إن تهلك هذه العصاة اليوم
لا تُعبد في الأرض أبداً . ونرى الشاعر يحشد أسماء بعض الأبطال الذين خاضوا
الواقعة ، ثم يصف كيف استجاب الله لرسوله ، فأنزل عليه من السماء كتبية
من الملائكة الأطهار ، كانت تضرب مع المؤمنين فوق أعناق الكفار ، وعلى
كل بنان :

الله أرسلَ في السحاب كتبيةً تهفو كما هفت البروق اللمّحُ
جبريلُ يضرب والملائك حوله صف تُرَضُّ به الصفوف وترُضّح
للقوم في أعناقهم وبنانهم نارٌ تريك الداء كيف يبرّح

ولم يلبث المشركون أن ولّوا الأدبار ، وهم ينادون بالويل والثبور ، فقد
قطعت رءوسهم ، ومزقت أجسادهم ، ولم يبق بينهم بطل أو شجاع إلا سفكت
دفعه الرماح ، ونهشت لحمه السيوف :

أودى بعتبة والوليد وشيبة وأمّية القدرُ الذي لا يُدرّح
وهوى أبو جهل ونوفلُ وارعوى بعد اللجاج الفاحشُ المتوقّح

فهؤلاء أشرف مكة : أبو جهل وعتبة وابنه الوليد وشيبة بن ربيعة وأمّية
ابن خلف ونوفل بن خويلد ، كل هؤلاء ذاقوا عاقبة كفرهم وعنادهم ، وردّ

كيدهم إلى نحورهم . أما المسلمون فأعزهم الله وأعز رسوله وأيده بنصر من عنده .
ويحدثنا « محرم » عن صدق الواقعة في مكة فيقول .

للجمع بالبيض البواتر يصدعُ	ما أكثرَ الباكين ملء جفونهم
للحزن منهن الدموع الهمع	جزّ النساء شعورهن وغودرت
والبيت يشدو والحطيم يرجع	رجعن مكره العويل على أسي
فيها لكل موحد مستمع	والمسلمون بنعمة من ربهم
هو ربنا وإليه منا المرجع	الله أكبر لا مراداً لحكمه

وبذلك تنهى هذه الغزوة في الإلياذة ، وتعقبها الغزوات الأخرى في
هذه الصورة من الشعر الذى يسجل الغزوة وأهم حوادثها وأبرز أبطالها وأشهر
مواقفها .

٣

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن صوت « محرم » في هذه الإلياذة بكل
سهاته وخصائصه ، فهو لا يكتب ملحمة كالملاحمة التى كتب فيها « هوميروس »
إلياذته ، وإنما يكتب أو قل ينظم سيرة الرسول . وفرق بين نظم السير
والشعر القصصى ، ذلك لأن الأول عمل آلى ، فالشاعر يقرأ التاريخ ثم يحوله
شعراً ، أو قل يحوله نظماً ، وهو لذلك لا يعالج حرباً ولا ملحمة بعينها ،
وإنما يعالج سيرة مطولة فيها الحرب وفيها غير الحرب .

ثم نفس هذه الإلياذة الإسلامية كما سماها « محرم » لا تتناول حرباً واحدة
من حروب الرسول ، وإنما تتناول مجموعة كبيرة من حروبه ، وهى تقف عند
كل حرب فتعرضها علينا عرضاً تاريخياً صادقاً ما أمكن . فيكون تاريخ ولكن
لا يكون شعر ، ولا يكون شاعر له انطلاقاته الواسعة . ومن أين يكون الشعر
والشاعر قد حدد نفسه بحقائق التاريخ يحصيها في إيجاز بالغ ، حتى لكأنه يؤلف

متناً من متون التاريخ ، فلا شرح ولا حاشية من خيال وحلم يمثل لنا مشاهد الموقعة ، وكأنها تبعث من جديد بتفاصيلها ، إنما هي المشاهد نفسها تصاغ من جديد نظماً .

ولا يُطلب من الشاعر القصصى أن يشوه التاريخ أو يحرفه ، ولكن يُطلب منه أن يمثل حقائقه لا كما هي في الواقع بالضبط ، ولكن كما تبدو في خياله وفي خبراته ، فإذا سار على الصراط التاريخي ، ولم ينحرف يميناً ولا شمالاً فإنه حتماً يسقط دون غايته .

وهل يمكن أن نعد ما قرأناه لمحرم إلياذة أو شعراً قصصياً ، إنما هو قصائد جُمع بعضها إلى بعض وسميت إلياذة ، ولن يغير الاسم من مدلولها الحقيقي شيئاً ، فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا من حيث الشكل ولا من حيث الموضوع . أما من حيث الشكل فإن الشاعر لم يقترح على نفسه وزناً معيناً ينظم فيه إلياذته ، بل ظن البحور كلها ملكاً له ، يتنقل بينها كيف يشاء .

وهذا هوميروس لم ينظم الآلاف المؤلفة من إلياذته في حرب طروادة كلها التي ظلت عشر سنوات طوالاً ، وإنما نظمها في حوادث سنتها الأخيرة ، وفسح لخياله في العدو والانطلاق ، فإذا هو يعطينا هذا العمل الخالد ، ولست أقصد الحقيقة التاريخية كما هي ، وإنما أقصد حقيقة فنه التي لا تنحرف بالتاريخ ولا تختلف معه ، ومع ذلك فهي أروع منه ومن حقائقه الجافة .

وهل من شك في أن إلياذة «محرم» جافة جفافاً شديداً ، وأنه لم يستطع أن يدخل على التاريخ المرقم في سيرة الرسول الزكية حياة وجمالاً ؟ إنها لا تزال كما هي في كتب السيرة ، لولا أن خصائصه كشاعر غنائى تظهر من حين إلى حين ، ولكن الكثرة يظل فيها التاريخ ، ويظل الإحصاء ، وتظل الأرقام ، يظل كل ذلك كما هو بدون أى تعديل أو اختلاف .

وهناك أدلة كثيرة على أن محرمًا لم تكن له موهبة الشاعر القصصى لا من حيث إنه جمع سيرة الرسول عليه السلام كلها في مجموعة من القصائد الجافة ،

ولأنما أيضاً من حيث إنه لم يستغل الفرص التي واثته في هذه السيرة، ليلعب خياله وينشط ذهنه . ومن الفرص الذهبية التي ضيَّعها فرصةُ الإسراء والمعراج ، وقد أكثر المسلمون من الكتابة فيهما والقصص حولهما شعراً ونثراً . ومعنى ذلك أنهما كثران عظيمان لصُنع مادة قصصية ضخمة ، ولم يحاول شاعرنا أن يحتكر لنفسه شيئاً من هذه المادة .

وحتى الفرص الكبيرة التي ألمَّ بها في إلياذته أدجمها إدماجاً في شعره ، ولم يستطع أن يستخلص منها شيئاً لنفسه وخلياله ، ومن هذه الفرص القيمة كتيبة الملائكة التي نزلت في غزوة بدر ، وحاربت في صفوف المسلمين . وهو حقاً ذكرها في ثلاثة أبيات ! . وكان يستطيع أن يضيف إلى صفوف المشركين كتيبة إبليس وجنوده من الشياطين . ومثل هذه المعركة كانت تستحق قصيدة طويلة بل إلياذة كإلياذة هوميروس التي كانت تحارب فيها الآلهة منتصرة مرة لليونانيين ومرة للطرواديين ، غير أن خيال « محرم » لم يكن مؤهلاً بحال لكي ينظم شعراً قصصياً أو يكتب إلياذة .

وحتى سيرة الرسول لم يدرسها دراسة منظمة ، ولذلك تظل السيرة في الكتب والأشعار القديمة أروع من شعره . ونفس هذه القصائد التي صاغها حول غزوات الرسول ومعاركه ليست شيئاً جديداً ، فليس هو أباً عُذرتها ، ولا هو فاتح بابها ، فالسيرة النبوية منذ أملاها ابن إسحاق تكتظ بالشعر الذي نُظم في وقائع الرسول وحروبه ، نظمه حسان وغير حسان ، ولو أن باحثاً جمع لنا هذا الشعر مرتباً حسب التاريخ لاستوت لنا منه إلياذة أجمل وأبداع من إلياذة محرم ، لأصالة شعرها واتصاله المباشر بالحوادث ، مما يجعله ينبض بالحياة الدافقة .

والخلاصة أن إلياذة « محرم » ليست ، كما يُظنُّ ، حدثاً جديداً في أدبنا ، بل هي عمل مسبوق ، وإن من الخطأ أن نسميها أو يسميها صاحبها إلياذة ، ولأنما هي مجموعة من القصائد في سيرة الرسول وغزواته . وهي أشبه ما تكون

بالقصائد الغنائية ، ومع ذلك فغنائيتها ضعيفة ، إذ ليس فيها مشاعر مثيرة ، ولا صور حية ناضرة ، فلا تقرؤها حتى تحس أنها زاخرة بالفتور ، وسرعان ما يملؤك السأم والملل . وهي لذلك شيء بين الشعر الغنائي والشعر التعليمي الجاف ، الذي يسرد عليك مجموعة من المعارف في أعداد وأرقام ، أما الشعر القصصي فليس فيها منه شيء . لأنها تفقد أهم أركانه وهو الخيال القوى النافذ ، الذي يقص عليك الأسطورة أو الحادثة التاريخية ، فيجعلك تستشعرها وتلمسها بكل تفاصيلها وجزئياتها لمساً قوياً ، حتى وكأنها تُحفَرُ في ذهنك حَفراً .